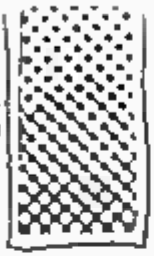

فى عائلة الركاب

قصة الكاتب الفرنسى : جى دى موباسان

ترجمة : سعدية صبرى

كان ترام « بيه » قد جاوز ضواحى « مدخل » مايو » وانطلق الآن على طول الطريق المؤدى لنهر « السين » . وكانت المكنة الصغيرة التى تجر العربة تسعل بوقها لكى تفسح امامها الطريق ، وتسعث بخارها وتلهث كمن يلتقط انفاسه وهو يجرى ، واساطينها (مكانسها) تحدث ضجة ، متلاحقة ، لقوائمها الحديدية وهى تتحرك . كان ذلك فى نهاية يوم من ايام الصيف ، تهبط حرارته الشديدة فوق الطريق فيرتفع منه ، دون ان يهب اى نسيم ، تراب أبيض طباشيرى كثيف خانق ، يلتصق بالجلد الرطب ويملأ العيون ، ويكتم الأنفاس .

احد بعض الركاب يهرعون الى الأبواب باحثين عن الهواء ، وأنزل رحاح العربة واحدث جميع السائر تحقق مهترهن سرعة العدو ، أما الذين احتلوا داخل العربة فهم العلة ، لانه فى مثل هذه الأيام الحارة تكون الأفضلية فى الجلوس دائما للدور العلوى من العربة او سطحها . فاولئك سيدات بدينات حريمات بطريقة عربية لافتة للأنظار ، انهن من ساكنات الضواحى اللاتى يستمتعن عما يقضين من صفقات بطبقة متكلفة مصطنعة .

وهؤلاء رجال مكدودون من المكاتب ، وجوههم مصفرة ، وقاماتهم مقوسة لهم كتف تعلو عن الأخرى من طول العمل وهم محنيون فوق المكاتب .

الوجوه قلقة وحزينة تحكى دائما المتاعب المنزلية ، والحاحة غير المنقطعة للمال ، والآمال القديمة التى اندثرت الى الأبد . انهم جميعا ينتمون الى هذا الحيش من الشياطين الرثة الثياب ، التى تدعو الى الشفقة ، تلك التى تسمت باقل النفقات فى منازل حقيرة مبنية بالجص تحانبها حربات من الأرض تقوم مقام الحدائق ، وسط مزرعة المجارى التى تقع عند اطراف باريس .

بالقرب من باب العربة وقف رجل قصير بدين ذو وجه منتفخ يتدلى بطنه بين ساقيه المتفرجتين ، يرتدى ملابس سوداء مزركشة ، وقف يتحدث مع شخص طويل القامة نحيف ذى مظهر

غير منظم ، يرتدي رداء قديما من الكتان الأبيض ، وفوق رأسه قبعة عتيقة من خوص « البناما » . كان الاول يتكلم ببطء مترددا أحيانا حتى ليبدو وكان به لكنة هندا هو السيد « كرافان » ويعمل « باشكاتبا » بوزارة البحرية . والثاني مراقب صحي سابق على ظهر سفينة تجارية ، اسهى به الأمر ان استقر في ميدان « كورنوا » حيث أخذ يطبق على سكان هذه البقعة المؤسفة المعلومات الطبية المشوشة التي تبقت له بعد حياة تتسم بالمغامرة . كان يسمي « شيبيه » وكان يحلو له أن ينادى بالدكتور ، ومسلكه كانت تحوم حوله الشائعات .

اما السيد كرافان فهو يواصل حياة بيروقراطية عادية . فهو ثلاثين عاما وهو يأتي في رتابة الى مكتبه كل صباح ومن نفس الشارع ، ومقابلا في نفس الساعة وفي نفس الامكنة نفس أوجه الرجال الداهبين الى اعمالهم ، ويعود منه كل مساء من نفس الطريق حيث يجد من جديد نفس الوجوه التي ظل يراها حتى هرمت .

كان في كل يوم بعد أن يشتري صحيفته نظير « سو » — وهو جزء من الفرنك — في ركن من أركان صالحة « سانت أوبوريه » يذهب ليحضر لنفسه رغيفين صغيرين ثم يتوجه بعد ذلك الى الوزارة كالمدنس الذي جاء ليستقر في سجنه . انه يملأ مكتبه في حيوية لكن قلبه يمتلىء بالقلق فهو دائما في انتظار التأنيب عن شيء من الاهمال يكون قد اقترفه

لا شيء قط حدث ليغير من نظام حياته الرتيبة — ان اي حدث لم يكن ليؤثر فيه الا ما يتعلق بعمله كالترقيات والعلاوات ولم يكن يتحدث في أثناء وجوده بالوزارة او وسط عائلته (فهو متزوج من ابنة احد زملائه بغير دوطة) لم يكن يتحدث أبدا الا عن العمل ، ونفسه التي اعتنقها تقريبا المطالب الملحة التي تتجدد كل يوم ليس لديها أية افكار أخرى أو آمال أخرى أو أحلام أخر الا تلك التي تتصل بالوزارة

ان الشيء الذي يفسد عليه شعوره بالرضا عن عمله هي حسرة مريرة سببها مفاجأة صباط اتصال البحرية وصناعها بشبكاراتهم الفضية لأعمال الرؤساء والمرؤوسين . وفي كل ليلة أثناء تناول طعام العشاء كان يحاول أن يقيم الأدلة امام زوجته التي تقاسمه نفس الاحقاد ليثبت أنه من الظلم — من جميع الوجوه — أن تعطى المناصب في باريس لأشخاص مخصصين للملاحة

لقد اصبح كرافان شيخا الآن — لم يشعر السنة بحياته وهي تمضي ، فالكتب — وبدون أي تعبير — هو امتداد للمدرسة والمشرفون على الدراسة الذين كان يرتعد امامهم بالأمس استبدل بهم الرؤساء الذين لا يفتأ يتشكك في نواياهم وهو فرح — وعنصة حجرة هؤلاء المستبدين تجعله يرتعد من قمة رأسه الى اخمص قدمه . وكانت هذه الرهبة الدائمة تكسبه مظهرا أبله ومظهرا مستصغرا ونوعا من الثانثة العصبية — انه لا يعرف باريس تماما كما لا يعرفها أعمى يقوده كلبه ، كل يوم في ممر لا يتغير ، وهو اذا قرأ في صحيفته ذات « السو » الواحد الأحداث والفضائح من يهتم وكأنها قصص خرافية مخترعة ، عن طيب خاطر ، لكي ترفه عن صغار

الموظفين . ونسي انه رجل له مركزه ومعارض دون ان يمضي حرب معين وعدو للتجديد ، فانه يعبر الأحداث السياسية التي كانت صحيفته تشوه معالمها دائما لأغراض تطير أجر مدفوع وعندما كان يعود كل مساء من طريق « الشانز اليزيه » كان يتفحص الجمع الحاشد من المتفرجين والسيل المتدفق من التجمعات كعابر غريب يمر ببلاد قاصية

في السنة نفسها ، عندما أكمل عامه الثلاثين في خدمة الدولة منحته هذه في اليوم الأول من شهر يناير وسام « جوقة الشرف » الذي يعطى دائما لموظفي الادارات المدنية التي حولت الى عسكرية تقديرا لخدمتهم الطويلة المضنية اولئك المدنيين المؤسياء الراسخين بالقائمة الحمراء .

هذه العطية الفجائية غطت على مغفرته فكرة سامية وحديدة وغيرت طباعه تغييرا شاملا . فمنذ هذه الساعة استبعد سراويله الملونة ، والسترات المزركشة وارتدى بدلا منها سراويل سوداء أنيقة وسترات رديجوت طويلة فهي أكثر ملاءمة للشبان العريض .

انه الآن يحلق ذقنه كل صباح ويقلم اظافره بعناية أكثر ويغير ملابسه الداخلية كل يومين وهو يشعر بشعور حقيقي من الرضا والاحترام للمرتبة الوطنية التي أصبح يحتلها .

لقد أصبح في يوم وليلة « كراڤان » آخر بطيئا مهيبا متواضعا وفي منزله ، وفي كل مناسبة كان يقسم دائما بوسامه لقد اتاحه نوع من الفخر جعله لا يعبأ بأية او سمة يحملها الآخرون ، من اي نوع آخر . وكان يحتاط على الأخص حينما يمر أناسا يحملون بياشين أجنبية (وكان رأيه انه يجب ألا تترك هذه البياشين تحمل في فرنسا) ذلك ما يريده وخاصة بالنسبة للدكتور « شيبيه » الذي يلقاه كل مساء ، وعلى صدره أحد البياشين البيضاء ، او الزرقاء ، او البرتقالية او الخضراء .

كان حديث الرجلين ابتداء من « لارك دي بريومف » الى أن يصلا « بيبه » دائما نفس الحديث ، والبرم ، وكالأيام السابقة ، انشغلا اولا بالمحالفات المحلية التي كانت تعض كليهما في الوقت الذي لا يأخذها فيه عند « بيبه » مأخذا جديا . وكما يحدث دائما ، والانسان بصحة طيب ، فان كراڤان يمر على الصفحة الصحية مؤملا ان يستخلص بهذه الطريقة بعض النصائح الصغيرة المجانية او حتى استشارة طبية يعمل بها دون ان يعطي الى ذلك أحد .

ان صحة والدته تقلقه منذ حين فهي كثيرا ما تصاب باغماءات طويلة ثم انها ، على الرغم من شيخوختهما ، وعمرها الذي بلغ التسعين ، لا توافق على أن تعالج مطلقا ، ان كراڤان يشفق عليها من أجل سنها الكبيرة ، وتردد بدون انقطاع للدكتور « شيبيه » « ألست تراها عالما وهي قادمة هنا ؟ » ويعرك يديه في سعادة لا لأنه مهتم بكون السيدة المسكينة قد عمرت على وجه الأرض ، ولكن لأن طول بقائها كان بمثابة وعد شخصي له بأنه سيكون

كذلك . ثم يضيف « نحن في عائلتي نعيش طويلا » ولهذا ماضي والدي بأنه ما لم يقع لي حادث فسأموت شيخا هرما جدا » ويلقي عليه المراقب الصحي نظرة اشفاق ثم يتفحص للحظة وجهه المحمر ورقبته الغليظة وكرشه المتدلي بين ساقين مترهلتين سمينتين . وهذا الشكل الكروي الذي يؤدي بأصحابه صاحب الموظف المحور الواهن بالسكتة القلبية . يتفحصه ثم يجيب ساخرا وهو يرفع بيده قبعته « البنما » الرمادية « ليس هذا مؤكدا تماما يا صديقي الطبيب فوالدتك كالمطاط الرديء . وأنت مكور كوعاء الحساء (سلطانية الشوربة) » ويرتسم كرافان ولا يجيب جوابا .

ويصل الترام الى المحطة فينزل الرفيقان ويدهبان كعادتهما الى قهوة « حلويل » المقابلة للمحطة حيث يقدم السيد (شيبيه) لصديقه قدحا من السيد . ويعد صاحب القهوة وهو صديق لهما اصبعين من فوق الرخامات المرصوصة على البار امامه فيضغطان عليهما محيين . ثم يدهبان بعد ذلك ليجلسا الى ثلاثة من هواة « الدومينو » جالسين الى مائدة عند الطهيرة . وبعد أن يتبادلا معهم العبارات الودية . وعبارة « مادا هنالك من جديد » التي لا تغفل يستأنف اللاعبون لعبهم في الحال ويتمتم لهم السيد «شيبيه» ورفيله أمية سعيدة فيمد هؤلاء أيديهم لمصافحتهما دون أن يرفعوا رؤوسهم . ثم يذهب بعد ذلك كل منهما الى منزله لتناول العشاء .

كان كرافان يقطن بالقرب من ميدان «كورنفوا» منزلا صغيرا من طابقين ، واما (البدروم) فيسكنه احد الخلاقين

كانت شقته تتكون من حجرتين وحجرة للطعام ومطبخ ، لها بعض الأرائك المجدده التي ينقلونها من حجرة الى أخرى حسب الحاجة اليها ، وتقضي مدام كرفان معظم وقتها في تنظيفها ، وفي اثناء ذلك تلهو ابنتها «مارى لور» وعمرها اثنتا عشرة سنة وابنها «فيليب اوجست» وعمره تسعة اعوام في مستنقعات الشارع مع بقية رعاع الحي

أما والدة كرافان التي أسكنها عوقه في الطابق العلوي فهي سيدة بخيلة ملأ صيت بخلها جميع الأرجاء ، وكان تحولهما خير دليل على أن الله قد طبق عليها نفس تعاليمها في التعبير . انها ثائرة بغير انقطاع ، لايمر يوم واحد دون ان تتشاجر وان تهيج صياحا عميقا فهي تستثير الجيران من النافذة وتكلمهم وهم وقوف امام ابوابهم ، وجميع الباعة ، والكناسين والصبية ، حتى انهم ـ لكي يتقوا منها ـ كانوا يتبعونها عن بعد ، وهي تسير في الشارع ، ويلقون عليها ـ في نفس رقة عبارات السخرية والاستهزاء .

وكانت هناك سيدة بورجوازية مسنة على جانب لا بأس به من البلاهة ، تقوم باعمال المنزل وتبيت الى جوار السيدة المحور بالطابق الثاني ، مخافة ان يقع لها حادث .

وبعد ما عاد كراغان الى منزله وجد زوجته ، وهي منهمكة بداء التنظيف المرمى ، تلمع بقطعة من قماش «الفانلة» الكراسي المصنوعة من خشب الأبنوس، والمنعشرة داخل الحجرات الخاوية ، انها تلبس دائما قصارا من الخيط ، وتحل رأسها بقبعة مزينة بشرائط متعددة الألوان تتبدل دائما الى ناحية فتعطي احدى اذنيها ، وكانت تكرر دائما اذا ما فاجأها احد وهي تنظف وتغسل « إنني لست عجبة ، كل شيء عندي متواضع ، ولكن البطاقة هي زخرفي الوحيد ، انها تساوي الكثير »

ونظرا لان الله حباها بعقلية عملية راجحة ، فقد كانت دليل زوجها في كل شيء ، وكانا كل مساء في أثناء تناولهما الطعام ، وبعد أن يأويا الى الفراش ، يتحدثان طويلا في شئون العمل ، ورغم انها تصغره بعشرين عاما فهو يثق بها كمرشدة له ، وتتبع دائما نصائحها في كل كبيرة وصغيرة .

ان مدام كراغان لم تكن جميلة يوما من الأيام ، بل هي دميمة ، ذات جسم ضئيل نحيف ، ترتدي ملابس غير ملائمة لها ، تخفي دائما ما تبقي لها من أنوثة كل من الممكن ابرازها لو ارتدت أزياء انيقة متقنة . لكنها تلبس دائما « جونلات » تميل الى احد الجانبين انها تقابل دائما وهي في كل مكان بالنور الذي يتزايد احيانا حتى يبلغ حد الرجفة عند رؤيتها . والزينة الوحيدة التي سمحت بها لنفسها تتلخص في مجموعة من الأساور الحريرية المتداخلة مشتة فوق ما تبقى قبعة والتي اعتادت ارتداءها في المنزل .

وبمجرد أن لمحت الزوجة زوجها بهضت وقبلته في وجنتيه قائلة « هل تذكرت ما كلفتك اياه يا عزيزي (انها مهنة وعندما يتجارها) ، فارتبك مذعورا على كرسي ، لأنه نسي هذه المهمة للمرة الرابعة واجاب «بالسوء الحظ !! بالسوء الحظ !! لقد تذكرتها جيدا طول اليوم ولكنني عند قدوم المساء انسى دائما » ولما رأت زوجته أن هذا قد أحزنه واسته قائلة « ستتذكرها غدا ان شاء الله ، ولا شيء هناك » وتابعت الحديث « هل من جديد في الوزارة »

ـ نعم بما خطير فقد عين أحد الصناع وكيلا للرئيس .

وباتت عليها امارات الحد وسألته

ـ وفي اى مكتب ؟

ـ في مكتب المشتريات الخارجية .

واعصبها هذا النبأ ووقعت قبعتها على كتفها .

ـ ارايت أن كل شيء قد انتهى ، هذه العلبة المغلقة لا يمكن العمل بها الآن .

ومن هو ضابط اتصالك الجديد ؟

ـ « ماسو » ...

واحس كراغان دليل التجربة الذي كان دائما في متناول يده وأخذ يبحث ... « ماسو ـ ولد بطولون سنة

١٨٥١ .. مساعد ضابط اتصال سنة ١٨٧١ ووكيل ضابط الاتصال سنة ١٨٧٥ » .

ـ هل مارس الملاحة ؟

واستعاد كرافان بشاشته عند هذا السؤال وضربه مرحة من المهجة اعتز لها كرشه الضخم وقال « انه مثل بالان تماما ، مثل بالان رئيسه » .

ثم سرد وهو مستغرق في الضحك دعابة قديمة كانت تتندر بها الوزارة كلها « ان بالان وباسبو يجب ألا يرسلا للتفتيش على محطة « بوان دي جور » البحرية عن طريق البحر ، فان سفرهما فوق هذه المراكب الصغيرة سيكون فيه متعة لهما وسيمرضان » .

ولم تعر هذه الدعابة من هيئة مدام كرافان ، وبقيت صارمة كأنها لم تستمع اليها ، ثم همست وهي تدعك في بطء دقنها « لو كان لدينا نائب واحد في المجلس مدين لنا بأي شيء ، لكان يجعل الوزير يعفر من حول الصدمة عندما يعرف الجميع ما يحدث هنا في داخل الوزارة » .

واطلعت صرخات على السلم مقاطعة حديثها ـ ان « ماري لوير » و « فيليب أوجست » وهما عائدان لتوهما من مستنقع في الشارع يتبادلان على كل درجة من درجات السلم اللطمات والركلات فاندفعت والدتهما وهي في ثورة عارمة وأمسكت بذراعيهما وألقت بهما داخل الشقة وهي تهرهما بقسوة .

وبمجرد ان لمحا والدهما أسرعا اليه فقبلهما في حنان قبلات طويلة ثم جلس وأجلسهما على ركبتيه وتحدث معهما حديثا قصيرا .

ان « فيليب أوجست » ولد صغير سيء الخلق اشعث الشعر قذر من أخمص قدميه الى قمة رأسه ، ذو وجه تلوح عليه البلاهة ، أما ماري لوير فكانت تشبه أمها في كل شيء ، تتحدث مثلها ، وتكرر عباراتها وكلماتها ، وتقلدها حتى في حركاتها ، وتردد ايضا نفس عباراتها « ماذا هنالك من جديد بالوزارة » ويحييها والدها في مرح « أيتها الصغيرة ، ان صديقك رامون الذي يأتي ويتغدى معنا هنا كل شهر سيتركنا . لقد أتى وكيل جديد بدلا منه » وترفع الفتاة عينيها لتنظر الى والدها في براءة الطفل الصغير ثم تقول « لقد قعر اذن واحد آخر من فوق ظهرك » فيضحك كرافان دون ان يجيب ، ولكي يغير الحديث قال موجها الكلام الى زوجته التي كانت لا تزال تلمع وهاج المنزل ، حتى هذا الوقت « هل والدتي بخير في أعلى ؟ »

وتوقف عندئذ مدام كرافان عن الدعك واستدارت اليه ووضعت فوق رأسها القبعة التي كانت قد سقطت فوق ظهرها وارتعشت شفتاها ..

ـ « نعم لنتكلم عن والدتك ، لقد أرادت ان تبدي لي ملاحظتها اليوم ! تصور انه منذ قليل صعدت الى مدام

« ليدو دان » زوجة الحلاق لكي تقترض مني علبة من السمك عطردتها وعاملتها كما لو كانت « شحاذة » لانى لم اكن موجودة بالمنزل ، ولذلك فقد لتهمت فتظاهرت بالصمم كعادتها عندما تثقل عليها الحقائق ، ولكنها ليست أشد صمما مني ، خدعها مني كلمة ، هذا تملد ، كل هذا والدليل على ذلك انها صعدت الى حجرتها في الحال دون ان تنبس ببنت شفة ، وارتمك كرفان وسكت ، وأسرعت الخادمة ضئيلة الجسم تدعوهم للعشاء ولكي ينسه كرفان والدته تناول يد مكنسة محاة دائما في ركن من الأركان ودق بها السقف ثلاث دقات ، ثم انتقل الجميع الى حجرة الطعام ، وقدمت مدام كرفان السمك الحساء ، وبقوا في انتظار مقدم مدام كرفان«العجوز» لم تحضر عند وبدأ الحساء يبرد فأخذوا يأكلون في تباطؤ وعرعت الأطباق وهم مازالوا في انتظارها وفي ثورة حانقه وجهت مدام كرفان الكلام لزوجها « انها تفعل هذا عامدة ، اتعرف ذلك ؟ لأنك دائما تؤيدها ووقع الزوج في حيرة شديدة بين الاثنين ولكنه أرسل ماري لوير لتصحب جدتها ، وبقي ساكنا ، خافضا عينيه ، وفي الوقت نفسه كانت زوجته تنقر بالسكين في عصبية ظاهرة على أسفل كوبتها ، وفجأة فتح الباب وظهرت الفتاة من جديد شاحبة اللون تكاد تتوقف انفاسها ، وقالت وهي تتكلم بسرعة « ان جدتي ملقاة على الارض .... »

وانتفض كرفان واقفا والقى بشمه على المائدة واندفع الى السلم يدفعه بخطواته الثقيلة السريعة التي كان صوتها يدوي ، وفي نفس الوقت تبعته في بطء زوجته وهي تهز باشمئزاز كتفيها فقد كانت تظن انها خدعة خبيثة من خدع حماتها .

كانت العجوز ملقاة بطولها على وجهها وسط الحجرة فأدارها ابنها ولكنهما كانت جامدة ودون حراك ، جلدها مصفر معضل مدبوغ ، وعيناها مغلقتان ، وأسنانها محكمة الاطباق بعضها على بعض ، وكل جسدها النحيل في حالة تصلب .

وركع كرفان على ركبتيه وهو يحار « مسكينة انت يا اماه ! مسكينة انت يا اماه ! » ولكن مدام كرفان الشابة تفحصتها للحظة ثم قالت « انها مغمى عليها كالعادة وهذا كل ما في الأمر ، وكل على يقين ان كل ذلك لكي تسمعنا من تناول العشاء » . وحملوا جسدها الى السرير ثم خلعوا عنه الملابس تماما وأخذ الجميع يدلكونه ، كرفان وزوجته والخادمة ولكن على الرغم من جهودهم لم تعد العجوز الى وعيها ، فارسلوا الخادمة « روزالي » لاستدعاء « الدكتور شيبيه »

كان هذا يقطن بعيدا عن رصيف النهر بالقرب من « سيرسين » ولذا كان الانتظار طويلا وأخيرا حضر شيبيه وبعد أن نظر الى السيدة العجوز وحسها

ونطقها نطق هذه الكلمات « تلك هي النهاية » .

وارتمى كراغان فوق جسدها وهو يهتز من النشيج المتلاحق ، يقبل في نشج وجه أمه المصلب ودموعه تفيض بغزارة تسيل قطراتها وجه السيدة المتوفاة - أما مدام كراغان الشابة فقد أصابتها بوادر عم حقيقية ، وكانت ترسل وهي واقفة خلف زوجها تأوهات خافتة ، وتدعك صدرها في عناد .

وانتفض كراغان فجأة بوجهه المتشنج وشعيراته المتعثرة فهو يبدو شديد القبح عندما يلم به حزن صادق « ولكن هل أنت متأكد يا دكتور ؟ تمام التأكد » فاقترب المراقب الصحي وقلب الجثة في براعة علمية مثل تاجر يقدر ثمن سلعته وقال « تقدم أيها الطبيب وانظر الى العين » ثم رفع الجفن وبدت نظرة السيدة المحور تحت اصبعه وليس بها أدنى تغير وبدت حدقتها أكثر اتساعا . وشعر كراغان بصدمة في قلبه وخوف يسري في مفاصله . ثم أخذ السيد شنيبية وهو ثائر كما لو كان أمامه شخص يعارضه ، أخذ ذراعها وضغط على أصابعها لكي يفتحها « انظروا فقط الى هذه اليد ، انني لا يمكن أن أخطئها ، فكونوا على يقين » . وسقط كراغان يسرع فوق السرير وهو حائر القوى تقريبا ، في الوقت الذي أخذت فيه زوجته تقوم بعمل الأشياء الضرورية ، متظاهرة بالبكاء . قربت من السرير منضدة صغيرة ، بسطت عليها غطاء ، ووضعت فوقه أربع شمعات أضاءتها جميعا ، وأخذت عصبا معلقا خلف مرآة المدفأة ووضعته بين الشموع في طبق ملأته بالماء الزائق لأنه لم يكن لديها ماء مقدس ولكن بعد تفكير سريع ألقت في هذا الماء درة من الملح وهي تتخيل دون شك أن ذلك يكسبها نوعا من القداسة .

ونزل كراغان في الصباح عندما عادته روحته وكانت قد أعدت قائمة بالأشياء التي يجب عملها في الصباح فناولته هذه القائمة فقرع عند رؤيتها وقرأ

١ ـ اعلان الخبر في مقر العمدة .

٢ ـ استدعاء طبيب المرض .

٣ ـ التوصية بعمل التابوت .

٤ ـ المرور بالكنيسة .

٥ ـ وسجل الوفاة .

٦ ـ وبطبيعة الحفارين .

٧ ـ عند مسجل الكنيسة .

٨ ـ وبالتلغراف لكي يخبر العائلة .

وعلاوة على ذلك سيل من المشاوير الصغيرة

ثم أخذ قبعته وانصرف .

كان الليل في ذلك الوقت قد انتشر وبدأ الجيران يفدون لرؤية المتوفاة . وعند الحلاق في «الدروم» كان يجري مشهد مسرحي بين الزوج وزوجته خاصا بهذا الموضوع في أثناء حلاقته لأحد الزبائن . همست الزوجة قائلة وهي تصنع حولها من التريكو

« تناقص واحدة ، واحدة بخيلة ،

لم يخلق مثلها كثير .. انني لم أكن في الحقيقة احبها ولكن مع ذلك يجب ان ادهب لرؤيتها .

ورمحر الروح وهو يعطي دقن زبونه بالصابون « هذه خواطر لا داعي لها ! ، ان النساء قد خلقن لهذا . ليس بكفيهن ان يضايقك في الحياة ، بل انهن لا يستطعن حتى ان يتركنك تنعم بالراحة بعد الموت » فاجابت روحته دون ان تتمهل ! « هذا شيء اقوى مني ، يجب ان أذهب ، ان هذا الامر يشغلني منذ الصباح . انني اذا لم أرها يخيل الى انني سأظل اذكر ذلك طول حياتي ولكني اذا تأملتها جيدا لأتذكر ملامحها فسأكون راضية بعد ذلك ، وهز الرجل كتفيه وهو ممسك بالموسى . واشر الى السيد الذي كان يحلق له دقنه « انني اسألك قليلا .. ما هي افكارك بالنسبة لهذه المقدسات السماوية ؟ ، انني شخصيا لست من يتسلون برؤية ميت » بعد أن روحته سمعته فاجابته بغير تردد ! « ان الامر كذلك .. انه كذلك ! » ثم وضعت الحوذي فوق المقعدة وصعدت الى الدور الاول . وكانت قد حضرت آنذاك جارتان احريان وبقيتا تتحدثان مع مدام كراقان عن الحادثة وهي تقص عليهما تفاصيلها .

وتوجه الجميع صوب الحجرة الجنائزية ودخلت السيدات الاربع دون جلبة ورشت الواحدة تلو الاخرى الغطاء بالماء المملح وركعن ، ورسمن علامة الصليب، ثم تمتمن بصلاة قصيرة ثم نهضن وقد ازدادت أعينهن اتساعا وقعرت أفواههن وهن يتفحصن الجثة لمدة طويلة ،

ووضعت زوجة ابن المتوفاة منديلا فوق عينيها ثم اصطحبت تهيدة باقية .

وعندما استدارت مدام كراقان لتخرج لحقت حلقهما بالقرب من الباب مارى لوير وفيليب أوجست ، يرتدي الاثنان قميصيهما ويطران في فصول ، عندئذ سيب سرهما الاضطراري وأسرعت بهما مرفوعة اليد تصرخ بصوت مدمر « ارحلا من هنا أيها المشردان الأبلهان الثقيلان » وصعدت مرة ثانية مع حفنة أخرى من الجارات ولوحت بالعصى فوق حماتها من جديد وصلت وسكبت الدموع وأنبت جميع واحيائها ثم النفت فوجدت حلقهما ولديها وقد عادا من جديد . تصفعهما بشدة . ثم لم تهتم بعد ذلك بعد قدومهما في المرة الثانية . وبعد قدوم أي زوار بعد ذلك كان الصغيران يطردان دائما ـ وهما راكضان في ركن من الاركان ـ أمامهما في كل ما كانت تفعله أمامهما .

وقلت وفود الفضوليات تدريجيا بعد الظهيرة ثم ما لبثت ان انقطعت نهائيا فعادت مدام كراقان الى شغلها وانشغلت في تحضير كل مايلزم للطقوس الجنائزية وبقيت الميتة بمفردها .

كانت نافذة الحجرة مفتوحة ، تدخل منها حرارة محرقة مع الغبار المنتشر ، وكان لهب الشمعات الاربع يتحرك بالقرب من الجسد الساكن ، وفوق الغطاء وعلى الوجه ذي الأعين المقفلة ، وفوق اليدين الممسدودتين كان الذباب الصغير يتسلق ويروح ويصدو ويتجول بدون انقطاع كأنه يزور السيدة المحنطة في انتظار ساعتها الاخيرة .

وعندما عادت مارى لوير وصليب اوجست ليتجولا من جديد فى الشارع احاط بهما الرملاء من كل جانب (وعلى الاخص الفتيات الصغيرات الاكثر نضوجا وادراكا لغوامض الحياة) واخذن فى استجوابهما تماما كما يفعل الاشخاص الكبار :

ـ « هل ماتت جدتك »

ـ « نعم امس مساء »

ـ كيف يكون الميت ؟

فاخذت مارى لوير تشرح وتقص عن الشموع والعض والوجه وعندئذ اشتعل الفضول فى جميع الاطفال وطلبوا الصعود عند الميتة . وفى الحال نظمت مارى لوير رحلة أولى من خمس بنات وولدين كانوا اكبر واشجع الموجودين ، ولكى لا يكتشفهم احد أرغمتهم مارى لوير على خلع نعالهم وتسللت الجماعة الى المنزل وصعدت بسهارة كجيش من الغيران . وفى الحجرة نظمت الفتاة الصغيرة اقامة الطقوس مقتدية فى ذلك والدتها ، فقادت زملاءها فى احتفال مهيب وركعت ورسمت علامة الصليب وحركت شفتيها ثم نهضت ورشت السرير . وفى ذلك الوقت اقترب الاطفال وهم متراصون كأنهم جسم واحد يملؤهم الخوف والفضول والدهول ليتأملوا وجه المحتوز ويديها ، وتصطنع مارى لوير فجأة البكاء محنية عينيها فى منديلها الصغير ، ثم تهدأ عندما تفكر فى هؤلاء المنتظرين بالباب فتسرع فى اصطحاب من معها الى الخارج لتحضر مجموعة ثانية ثم ثالثة ، لان جميع أطفال المدينة اشقياء ، وحتى الشجاعين فى تمامهم السالبة كانوا يهرعون للتمتع بهذه المتعة الجديدة . وكانت مارى لوير تبدأ فى كل مرة من جديد فى محاكاة أمها باتقان تام . وفى النهاية بعثت فانصرف الاطفال بعيدا الى لعبة أخرى وبقيت الجدة وحيدة منسية تماما من العالم كله . كانت الظلال تملأ الحجرة وكان لهب الشموع المهتز يجعل الاضواء تتراقص فوق وجهها الجامد المجمد . وحوالى الساعة الثامنة مساء صعد كرافان واغلق النافذة واستبدل شموعا جديدة بالشموع . كان يدخل فى هدوء وكالعادة يتفحص الجثة كما لو انها كانت هناك منذ شهور . لقد اكتشف أنه لم يظهر بها أى تحلل بعد فاندى هذه الملحوظة لزوجته فى اثناء جلوسهم الى المائدة لتناول الطعام فاجابته « اطمئن ، انها محلوقة من حنطب ولن تبلى قبل عام » ثم تناولوا الطعام دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، اما الاطفال فكان التعب قد انهكهم لانهم ظلوا منطلقين طوال اليوم فناموا فوق مقاعدهم ، وبقى الجميع فى سكون . وفجأة انخفض ضوء المصباح فادارت مدام كرافان مفتاحه لكنه أحدث صوتا مخنوقا وحشرجة طويلة ثم اطفأ نوره نهائيا . لقد نسوا فى عجرة الاشتعال شراء زيت ! والدهاب الى المقال سيؤخر موعد العشاء فأخذوا يبحثون عن بعض الشموع ولم يجدوا فى النهاية سوى الشمعات المضاءة فوق المقعدة بالدور الاعلى . ولما كانت مدام كرافان سريعة فى اتخاذ قراراتها فقد أرسلت مارى

لوير على عجل لتحضر الابنتين منهما ، وظل الباقون ينتظرون وسط الظلام . لقد سمعوا بوضوح وقع اقدام الفتاة وهي تصعد السلم ، ثم تبع ذلك سكون لمدة لحظات ثم عادت الابنة مسرعة وفتحت الباب وهي فرحة ، وكانت اكثر ارتياحا من الليلة السابقة عندما أخبرتهم بالفاجعة قالت في صوت منخفض وانفاسها تكاد تختنق « ان جدتي ترتدي ملابسها يا أبي » وانتفض كراڤان واقفا وهو يرتجف وتدحرج مقعده ، وارتطم بالحائط فقال مذعورا « أنت تقولين ... ما الذي تعوليه ؟ »

ولكن مارى لوير اعادت هذه العبارة وهي تكاد تختنق من شدة الانفعال .. « جدتي ترتدي ... جدتي ترتدي ملابسها وستخرج » .

فاندفع كراڤان الى السلم في جنون تتبعه زوجته وهي مشدوهة ثم وقف امام باب الدور الثاني يرتجف من الفزع دون أن يجرؤ على الدخول . مادا تراه سيرى ؟ وكانت مدام كراڤان اكثر منه شجاعة فادارت القفل ودخلت الحجرة وبدت الحجرة وكأنها ازدادت ظلمة ، وفي وسطها شبح طويل يتحرك . لقد كانت هي المحور التي تقف ، والتي لم أفاقت من غيبوبتها ، وقبل أن تعود تماما الى رشدها استدارت متكئة على مرفقها واطفأت ثلاثا من الشمعات الاربع التي كانت تحترق بجانب سرير الموت ، ولما استعادت كامل قوتها نهضت لتبحث عن ملابسها ، ولقد أزعجها عدم وجود (الكومودين) الخاص بها في بادئ الامر ولكنها وجدت بالتدريج حاجياتها داخل صندوق خشبي فارتدت ملابسها في هدوء . وأفرغت الطشت المملوء بالماء واعادت الغسل الى مكانه خلف المرآة والمقاعد الى اماكنها وعندما اصبحت مستعدة للنزول ظهر أمامها ولدها وزوجته واسرع كراڤان والدموع تملأ عينيه وامسك بيديها وقبلها ووقفت زوجته خلفه تكرر في حمق « بالسعادة بالسعادة ! » وسألت العجوز وهي مشدوهة كالتمثال وعينها محمرة دون أن ترف أو تبدو عليها أنها تفهم سر ما يدور حولها سألتهم فقط هل أعد العشاء ؟ فأجاب كراڤان وهو يكاد يفقد رأسه « اجل يا والدتي ونحن في انتظارك ! » وبسرعة غير عادية أمسك بذراعها وأمسكت مدام كراڤان الشمعة لتنير لهما وتراجعت أمامهما السلم بظهرها درجة درجة ، وعند وصولهم للدور الاول أوشكت مدام كراڤان أن تصطدم بالقادمين خلفها فلما استدارت تبينت انهم عائلة « شارمشون » ومدام « نرو » وزوجها . وفتحت مدام نرو وهي طويلة القامة عليطة ذات كرش تشبه المصابين بداء الاستسقاء ، ويميل بقصدها الصدري الى الخلف فتحت عينيها في ذعر واستعدت للهرب ، أما زوجها وهو اسكاف قصير القامة معطى بالشعر حتى أنفه ، يشبه القرد تمام الشبه فقد حملق دون أن يبدو عليه أي تأثر

« ما هذا ؟ هل بعثت من جديد ؟ » وما ان رأتهم مدام كرافان حتى اشارت لهم اشارات يائسة ، ثم قالت لهم بصوت مرتفع « ما هذا ؟ لقد حضرتم الان ! يا لها من مفاجاة سعيدة » ولم تفهم مدام برد واجابت بصوت منخفض وهي في ذهول « ايها مرتيتكم هي التي اتت بنا الى هنا . لقد كنا نظن ان كل شيء قد انتهى » وكان زوجها واقفا خلفها يغرضها لكي تسكت ثم يضيف وهو يضحك ضحكة ماكرة ، تحجبها دقنه الكثيفة « كم كان لطيفا منكم ان دعوتمونا . لقد سددنا لكم على محل » وكان يشير بذلك الى المشاحنات التي تسيطر منذ زمن بعيد على الطرفين « وما ان وصلت العجوز الى الدرجات الاخيرة من السلم حتى تقدم منها برد في حيوية ورفع عن جدها الشعر الذي يغطيه ، ونظرا لفقدانها السمع فقد صاح في اذنها « كيف حالك ايتها الوالدة ؟ مقبلة كعادتك ! اليس كذلك ؟ »

ولم تحرؤ مدام برد حتى على ان تقبل والدتها فهي في دهشة من أمرها ، كيف تجدها حية من كانت تظن انها في عداد الاموات « وظلت مدام برد واقفة عند الطريق تغطيها امام بقية القادمين .

كان يبدو على العجوز القلق والشك ولكنها لم تتكلم بل كانت تلتفت الى هذا الجمع الذي يحوطها وتسرح نظراتها من شخص لاخر ، وكانت عيناها الرمادية الصغيرة تمتلىء بالخواطر المرئية التي يتضايق منها اصحابها . ولكي يوضح كرافان الامر قال « لقد كانت مصممة بعض الشيء ولكنها تحسنت الآن . تحسنت تماما « اليس كذلك يا اماه ؟

فاجابت السيدة وهي تشايع سيرها بصوت ضعيف كأنه آت من بعيد : «لقد كانت العشاء وكنت أسمعكم طول الوقت ، وتبيع ذلك سكون محير ثم توجهوا الى الصالة وجلسوا حول عشاء اعد لهم في دقائق . ان السيد برو فقط هو الذي ظل محتفظا بشاشه ، ولكنه من حين لآخر كان يقطب وجهه الذي يشبه وجه الغوريلا الشرسة ويطلق كلمات ذات معنيين يتضايق منها الجميع بوضوح . وكان حرس الهيو يدق كل لحظة وتاتي روزالي في حيرة تبحث عن سيدها ، ولقى كراغان بمشمئته وهو يتدفع اليها فيسأله روح احته السيد برو عما اذا كان هذا اليوم يوم استقباله فيجيب متلعثما : « لا بل هي أعمال لا شيء مطلقا » وفي تلك الاثناء أحضرت له روزالي رقعة فضها بلاهة ولما وجد بها خطابات للتعزية مجللة بالسواد اعاد اغلاق الرقعة ودسها في جيبه شديد داخل صديريته ، والتفت المحور ذات الوجه المجعد الذي يشبه وجه الساحرة ، والعينين المرتعشتين الماكرتين الى ابنتها وقالت : « احضري لي ابتداء يوم الاثنين قاني اريد رؤيتها » واشرق وجه مدام برو وصاحت مسمعا وطاعة يا أماه» وشحب وجه مدام كراغان وهي تتميز من الغيظ . وفتح الباب وظهر منه الدكتور شبيبه فانتابه الذهول لحظة ، لكنه تمالك نفسه واقترب من المحور وقال : « انك تبدين أحسن حالا اليوم ايتها الوالدة ، انني لم أكن اشك في ذلك ، تصوري أني كنت أحاطب نفسي وأنا أصعد السلم واقول «سوف احدها وقصة ، تلك المحضرمة ، انني أراهن على ذلك ، انها قوية مثل حصان بون نيف ، سوف تدفنا جميعا وستروين وجلس شبيبه وقدمت له القهوة فشربها وعندما شعرت المحور بالتعب وأرادت الانصراف أمسكت بذراع ابنتها وغابت عن الانظار .

وبقي كراغان وزوجته في حالة ذهول وصمت ، فقد كانا واقعين في نكبة مخيفة ، في حين كان برو يحرك يديه ويرتشف قهوته بتنعيم وفجأة حن جون مدام كراغان من العصب فانطلقت اليه وهي تصيح « انك لص ، انك منحط ومن أسافل القوم ، انني أبصق في وجهك . انني . . انني . . » ولم تجد شيئا شيئا آخر تقوله ليضايقه لكنه استمر في شرب القهوة وهو يضحك .

وكانت زوجة برو قد افلت لتوها فانطلقت نحو زوجة أخيها ، وتبادلتا بأعلى صوتيهما قناطر مضطربة من السباب الاولى بطيئة صحم ومرعب . والثانية مصابة بالصرع نحيلة ذات صوت متلون وبد مرتعشة .

وتدخل شبيبه وبرو ودفع هذا الاخير بصعوبة زوجته وهو ممسك بكتفيها ودفع بها الى الخارج صائحا : «اذهبي ايتها الحشمة انك تنهقين كثيرا » ، ثم سمعا يتشاجران وهما يبتعدان في الطريق وانسحب السيد شبيبه وبقيت عائلة كراغان وحدها لوحدها وسقط الرحل على مقعد والعرق البارد يتصبب من جبينه وهمس قائلا :

« ماذا سأقول غدا للوزير ؟ »